المعاني الثواني

في أسلوب الاستفهام بالهمزة

في القرآن الكريم

د. نورة صبيان بخيت الجهني

جامعة الملك عبد العزيز - جدة

العـــــدد السَّـــــابع
رجـــب ١٤٣٦هـــ
أبريـــــــل ٢٠١٥م

مجلة مجمع اللّغة العربية
على الشبكة العالمية

السيرة العلمية:

د. نورة صبيان بغيت الجهني

- ماجستير في اللغة العربية وآدابها (فقه اللغة) من كلية التربية للبنات بجدة، عام ١٤١٢هـ.
- دكتوراه في اللغة العربية وآدابها (فقه اللغة) من جامعة الأميرة نورة بالرياض، عام ١٤١٩هـ.
- تعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا في جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

الملخص :

يتناول البحث المعاني الثَّواني لأسلوب الاستفهام بالهمزة في القرآن الكريم عند علماء البلاغة والنحو واللغة، وهي المعاني الضمنية الحافة التي تفهم من السياق الذي ترد فيه، وهي أيضا المعاني التي تكتسب معنى تداوليا بناء على ما جاء في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني. وقد توصلت هذه الدراسة إلى نتيجة مفادها: أنّ عبد القاهر الجرجاني سبق أصحاب النظرية التداولية عند حديثهم عن انتقال الدلالة من المعنى الحرفيّ إلى المعنى الضمنيّ، كما تدرس همزة الاستفهام وخصائصها النحوية، ووظيفتها الأسلوبية والبلاغية في تحقيق الدلالة القرآنية التي تتنوّع بتنوع سياقاتها.

Abstract :

The research covers the secondary meanings of the interrogative style using 'Alhamza' in the Quran by scholars of rhetoric, grammar, and language. Secondary meanings are the implicit meanings understood within the context in which they appear. They are also the meanings grasped within the theory by Abdul QahirGorgani. The main result of this study is that Abdul QahirGorgani precedes the pragmatic theorists when they have dealt with the transmission of the literal meaning to the implicit meaning. He also has investigated the interrogative from using 'Alhamza' and its grammatical characteristics and its stylistic and rhetorical functions in order to express Quranic meanings which vary according to diverse contexts.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ملء السماوات وملء الأرض ما شاء من شيء بعد، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام المتقين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد؛ يتناول البحث المعاني الثَّواني لأسلوب الاستفهام بالهمزة في القرآن الكريم، ويعرض للمعاني الثّواني عند علماء البلاغة والنحو واللغة، وهي المعاني الضمنية التي تفهم من السياق الذي ترد فيه، كما يعرض لهمزة الاستفهام وخصائصها النحوية، ووظيفتها الأسلوبية والبلاغية في تحقيق الدلالة القرآنية؛ التي تتنوّع بتنوع سياقاتها. وهمزة الاستفهام تمتاز عن غيرها بخصائص لفظية ومعنوية، ويُستفهم بها عن المفرد وعن النسبة، أمّا من حيث المنهج فإنّ المنهج الوصفي التحليلي نراه أجدى المناهج التي يمكن تطبيقها على هذه الدراسة.

همزة الاستفهام

إنّ أدوات الاستفهام كثيرة الاطراد في اللغة العربية، وقد اهتمّ القدماء من علماء العربية بدراستها فعقدوا لها أبوابا في كتبهم سواء أكانت نحوية أم بلاغية أم لغوية.

والاستفهام في اللغة مشتق من الفَهْم، ومعناه : معرفتك الشيء بالقلب، يقال : فَهِمَهُ، فَهْمَا، وفَهَمَا، وفَهَامَةَ: علِمهُ. وفَهِمْتُ الشَّيء: عقلته وعرفته، وفَهَّمْتُ فلانا وأَفْهمته، وتَفَهَّمَ الكلام: فَهِمَهُ شيئا بعد

شيء. ورجل فَهِمٌ: سريع الفهم، ويقال: فَهْمٌ وفَهَمٌ. وأَفْهَمَهُ الأمر وفَهَّمَهُ إياه: جعله يفهمه. واسْتَفْهَمَه : سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهَّمْتُهُ تفهيمًا[(١)].

أمّا في الاصطلاح فهو: «طلب حصول صورة الشيء في الذهن تصديقًا أو تصورًا، فإن كانت تلك الصورة هي وقوع نسبة بين الشيئين، فحصولها هو التصديق وإلا فهو تصور»[(٢)]، أي: طلب الفهم أو المعرفة أو العلم بشيء ليس للمتكلم علم به.

وأدوات الاستفهام من الأدوات التي لها الصّدارة في الكلام، ولا يجوز تقدم شيء ممَّا في حيزها عليها، وتنقسم إلى قسمين: حرفا الاستفهام، وهما : الهمزة وهل، وأسماء الاستفهام وهي: من، ما، ماذا، متى، أيّان، أين، أنّى، كيف، كم، أي، والاستفهام بهذه الأدوات يكون مداره أحد أمرين: الأوّل : النِّسبة و يسمّى التصديق، والثاني: أحد أجزاء الجملة، أو الحُكم، أو العلاقة القائمة بين المسنَد والمسنَد إليه ويسمّى التَّصور. وإدراك النّسبة؛ أي الاستفهام عن مضمون الجملة يستوجب التدبّر والتأمّل وهذا لا يستوجبه إدراك المفرد.

وتنقسم بحسب المستفهم عنه إلى ثلاثة أقسام [(٣)]:

١- ما يطلب به التّصور تارة والتّصديق تارة أخرى وهو الهمزة.

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب (دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠) مادة (ف هـ م).

(٢) المناوي، محمد عبد الرؤوف. التوقيف على مهمات التعاريف (دار الفكر، بيروت – دمشق، ١٤١٠) تحقيق : د. محمد رضوان الداية ٥٩.

(٣) فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم المعاني، دراسة بلاغية ونقديّة (مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤) ٣٠٦.

٢- ما يطلب به التصديق فقط، وهو (هل).

٣- ما يطلب به التصور فقط وهو بقية الأدوات.

وما يعنينا في بحثنا هذا همزة الاستفهام فهي أمّ باب الاستفهام. ومن أهم خصائصها :

١- هي أصل أدوات الاستفهام استعمالا؛ إذ ذهب كثير من النحاة إلى أنَّها وحدها هي الأداة الأصلية في الاستفهام التي تستعمل في غيره، وهي ترِد أكثر من غيرها، يقول سيبويه (١٨٠هـ) : «وذلك لأنها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره»(٤).

٢- بُنيت أسماء الاستفهام لأنّها تضمَّنت معنى همزة الاستفهام، وعلّل النحويون سبب بناء الأسماء في الاستفهام بأنّها متضمّنة معنى الحرفية في دلالتها، قال ابن عصفور (٦٦٣هـ) : «والأسماء كلَّها معربة إلاّ ما أشبه الحرف أو تضمّن معناه كأسماء الشّرط فإنّها تضمّنت معنى (إنْ) وأسماء الاستفهام فإنها تضمّنت معنى (الهمزة)»(٥).

٣- دخولها على :

(٤) سيبويه، أبو بشر عمرو. الكتاب.(مكتبة الخانجي، بيروت - القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م) تحقيق : عبد السلام هارون (٩٩/١).

(٥) ابن عصفور الإشبيلي، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن محمد الحضرمي.المقرب (بغداد، ١٩٢٧) تحقيق : أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري (٢٨٩/١).

١- الجملة المؤكدة بـ (إنّ)، إذ اتّفق النّحاة في جواز دخول الهمزة دون سائر أدوات الاستفهام على(إنّ) المؤكّدة، قال السيوطي (٩١١هـ): «إنَّ الهمزة تختصّ دون (هل) بالدّخول على (إنّ)»[٦].

٢- جملة الشرط، فقد ذكر الزركشي (٧٤٩هـ): إن الهمزة تختصّ دون (هل) بالدخول على جملة الشرط فتقول (أإنْ أكرمتني أكرمتك؟). و(أإنْ تخرج أخرج معك ؟)، ولا تقول: هل إنْ تخرج أخرج معك؟[٧].

٣- حروف العطف، ففي مذهب سيبويه والجمهور من النُّحاة أنَّ همزة الاستفهام إذا كانت في جملة معطوفة بـ (الفاء) أو (الواو) أو(ثمّ) فإنها تتقدّم على العطف، دلالة على أصالتها في التّصدير في حين أنّ أدوات الاستفهام الأخرى تتأخّر عنه، وهذا هو القياس في جميع أجزاء الجمل المعطوفة[٨].

٤- (هل) وعلى سائر أسماء الاستفهام، أجاز المبرّد هذا الأمر وأنشد:

---

(٦) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. همع الهوامع في شرح الجوامع (دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦)، (٤٨٣/٢).

(٧) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن (المكتبة العصرية، بيروت – صيدا، ط٢، ١٣٩١ هـ، ١٩٧٢ م)، (٣٤٩/٢).

(٨) ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٧٩م)، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله. راجعه : سعيد الأفغاني (٢٢).

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشِدَّتِنَا أَهَلْ رَأَونَا بسَفحِ القُفِّ ذِي الأَكَمِ

وهو قليل لا يقاس عليه(٩).

٥- الجمل المنفية والمثبتة: إذ خُصَّت من بين أدوات الاستفهام بهذه الخصّيصة، وغيرها لا يدخل إلاّ على المثبتة خاصة.

٤- جواز حذفها: ذهب قوم إلى أن حذف همزة الاستفهام من ضرورات الشعر، ولو كانت قبل (أم) المتصلة. وهو ظاهر كلام سيبويه، وذهب الأخفش (٢١٥هـ) إلى جواز حذفها في الاختيار، وإن لم يكن بعدها (أم). وجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء]، قال ابن مالك (٦٧٢هـ): وأقوى الاحتجاج على ما ذهب إليه قول رسول الله ﷺ لجبريل: «وإنْ زنى، وإنْ سرق؟». فقال: وإنْ زنى وإنْ سرق. أراد: أوَ إنْ زنى وإنْ سرق؟ والمختار أنَّ حذفها مطرد إذا كان بعدها أم المتصلة، لكثرته نظمًا ونثرًا» (١٠). وعلى هذا فمن خصائص الهمزة التي تميّزت بها من بقية الأدوات الأُخرى جواز حذفها لدلالة (أَمْ) عليها إذا فُهِمَ المعنى

(٩) ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م) تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي ٢: ٢٢٣ وفوارس: جمع فارس. يربوع: أبو حيّ من تميم. السَّفح: أسفل الجبل. القُفّ: ماارتفع من متون الأرض. الأكمة: تلّ من القُفّ، وهو حجر واحد، ويجمع على أكم. يعني: سائل فوارس هذه عن قوة حملتنا بهذا الموضع (الجرجاني، الشريف. شرح أبيات المفصل، شاهد رقم ٣٢٤).

(١٠) المرادي، ابن أُمّ قَاسِم. الجنى الداني في حروف المعاني (دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م) تحقيق : د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل(١/ ٤).

ودلّ عليه السياق، وهذا لا يختصّ بالشّعر وحده. وأمَّا إذا لم تكن (أم) في الكلام فلا يجوز حذفها.

٥- تقديم الاسم على الفعل بعدها، لَيس فِي أَدوات الاستفهام ما إذا اجتمع بعده الاسم والفعل يليه اسم في فصيح الْكَلام إِلَّا الْهمزة، يقول سيبويه: «وحروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل، إلا أنَّهم قد توسعوا فيها فابتدأوا بعدها الأسماء، والأصل غير ذلك»[١١]. وإذا جاء بعد أداة الاستفهام كلام فيه اسم وفعل، كان التقديم للفعل أولى حملاً على الأصل فيها وتقديم الاسم قبيح ولا يجوز إلا في ضرورة الشعر. يقول سيبويه: «واعلم أنَّه إذا اجتَمع بعد حروف الاستفهام، نحو (هَلْ) و(كَيْف) و(مَنْ) اسمٌ وفعلٌ، كان الفعلُ بأن يَلِيَ حرفَ الاستفهام أوْلى، لأنَّها عندهم في الأصل من الحروف التي يُذكر بعدها الفعل»[١٢]. ونستدل بهذا على جواز دخول الهمزة على الاسم والفعل بلا قبح خلافًا لباقي أدوات الاستفهام الأخرى.

٦- استعمالها في غير معنى الاستفهام، ذهب بعض النحاة إلى أن (الهمزة) قد تستعمل في غير معنى الاستفهام فتختصّ بورودها لمعاني التّسوية والتّقرير والإنكار والتّوبيخ والتهكم والأمر والتعجب والاستبطاء وأن سائر الأدوات لا ترد لشيء من ذلك[١٣].

(١١) الكتاب (١/٨٩).

(١٢) السابق (٣/١١٥).

(١٣) ينظر :السيوطي، همع الهوامع (٢/٦٩).

والأرجح ما ذهب إليه التفتازاني أنّ أدوات الاستفهام أيضا تستعمل للتقرير والإنكار، ولكنّها لا تكثر كثرة الهمزة في ذلك(١٤).

٧- وقوعها عوضا عن (واو القسم)، تعد الهمزة الأداة الوحيدة التي تكون عوضًا عن هذه الواو فيجرون بها لنيابتها عنها، وذكر النحاة أنَّ وقوع (همزة) الاستفهام عوضًا عن (واو) القسم لا يفقدها دلالتها على معنى الاستفهام(١٥).

٨- استعمالها مع (أم) للتسوية، يقول سيبويه: «من هذا الباب قوله: ما أبالي أزيدًا لقيتَ أم عمرًا، ، وسواء عليَّ أبِشْرًا كلَّمتُ أم زيدا، كما تقول : ما أبالي أيَّهما لقيتَ. وإنَّما جاز حرفُ الاستفهام ههنا لأنَّك سوَّيت الأمرينِ عليك كما استويا حين قلت : أزيدٌ عندك أم عمرو، فجرى هذا على حرف الاستفهام» (١٦). وذكر الاستراباذي (٦٨٦هـ) أنَّ (الهمزة) تستعمل مطردًا مع (أم) المتصلة، ولا تستعمل (هل) معها إلا شاذا(١٧). وعلى هذا،

(١٤) مختصر سعد الدين التفتازاني – شرح التلخيص (عيسى البابي الحلبي، مصر، د.ت)، (٢/٢٩٦).

(١٥) ابن جني، أبو الفتح عثمان. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. (القاهرة، ١٩٦٩ م) تحقيق على النجدي ناصف ود. عبد الحليم النجار ود. عبد الفتاح إسماعيل شلبي (١/٢).

(١٦) الكتاب (٣/١٧٠).

(١٧) رضي الدين. شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، (دار الكتب العلمية، بيروت)، (٢/٦١-٦٣).

فهمزة الاستفهام إذا كانت للتسوية جاء بعدها جملتان تفصل بينهما (أم) المعادلة المتصلة العاطفة.

ويتضح لنا أن دلالة التَّسوية اكتسبها السّياق من كلمة (سواء)، و(أم) بدليل عدم انتفاء هذه الدلالة عند حذف الأداة ؛ لذا لا يمكن أن تكون الهمزة وحدها للتسوية.

٩- التّصور والتّصديق: وهما من المصطلحات البلاغية، التي أشار إليها علماء النحو دون استفاضة في الشرح. والتَّصور والتّصديق الاستفهامي هو أن «يستفهم عن المفرد وعن الحكم»[١٨]. فالمفرد هو التّصور. والحكم هو التَّصديق. والهمزة تطلب أحد الأمرين التّصور أو التّصديق. «فإذا كانت الهمزة لطلب التّصديق كان جواب الاستفهام بـ (نعم) أو(لا)، ولا يذكر معها معادل ويليها غالبا الفعل إن وجد»[١٩]، ولا يكون الاستفهام لطلب التَّصور إلا بعد حصول التّصديق بأصل النّسبة: فعند ذلك تكون الهمزة للاستفهام عن المفرد الذي يليها سواء كان فاعلا نحو (أأنت ضربت زيدًا؟) إذا كان الشّك في الفاعل من هو أم مفعولا نحو (أزيدًا ضربت ؟) إذا كان الشّك في المفعول[٢٠]. وعلى هذا تكون الهمزة لطلب التصور أو التصديق، فتأتي لطلب التصور إذا كان

(١٨) عباس، فاضل حسن. البلاغة فنونها وأفنانها (دار الفرقان للطباعة والنشر، عمان، ط٢٠٠٠،٧ م)، (١٧٤).

(١٩) فيود. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني (٣٠٦).

(٢٠) ابن جني. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (٢/٢٠٥).

السائل على علم بالنسبة التي تضمنها الكلام لكنّه لا يستطيع تحديدها لأنّه متردّد بين شيئين وهو يطلب تحديد أحدهما. وتأتي الهمزة لطلب التصديق إذا كان السائل متردّدًا ويراوده شكّ حول ثبوت النسبة أو نفيها، وهو بسؤاله يطلب تعيينا لتلك النسبة إمّا ثبوتًا أو نفيًا.

المعاني الثواني (معنى المعنى)

بدأ الحديث عن نظرية معنى المعنى (The meaning of meaning) في العصر الحديث على يد الدكتور ريتشاردز[٢١]، لكن الفكرة ظهرت عند علمائنا الأوائل حتّى اكتملت صورتها في مصنفات عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) فكانت له الرّيادة في هذا الجانب، يقول الدكتور عبد العزيز حمودة في مصطلح (معنى المعنى) عند عبد القاهر: «إنَّ الرّيادة الحقيقية لعبد القاهر الجرجاني تتمثَّل في جانب كبير منها في تقديمه لمصطلح مألوف في الدّراسات اللغوية والأدبية في القرن العشرين هو معنى المعنى»[٢٢].

ويشرح لنا الجرجاني هذه الفكرة بقوله: «وإذ قد عرفتَ هذه الجملةَ فهاهنا عبارةٌ مختصرةٌ وهي أن تقولَ: المعنى ومعنى المعنى. تعني

(٢١) مبادئ النقد الأدبي والعلم و الشعر (المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥) ترجمة: محمد مصطفى بدوي، مراجعة: لويس عوض، وسهير القماوي.

(٢٢) حمودة، عبد العزيز. المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية (عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠١)، (٢٩٨).

بالمعنى: المفهومَ من ظاهرِ اللفظِ والذي تصِلُ إليه بغيرِ واسِطَةٍ، وبمعنى المعنى: أن تعقِل من اللفظِ معنىً ثمَّ يُفْضِي بكَ ذلكَ المعنى إلى معنىً آخرَ كالذي فسَّرتُ لك»[٢٣].

وتتضح الصورة حين يضرب لذلك الكثير من الأمثلة؛ منها على سبيل المثال قوله: «أوَلا ترى أنّك إذا قلتَ: هو كثيرُ رمادِ القِدْرِ، أو قلتَ: طويلُ النّجادِ، أو قلتَ في المرأةِ: نَؤُومُ الضّحى، فإنّك في جميعِ ذلك لا تفيد غرضَكَ الذي تعني من مجرَّدِ اللفظِ ولكنْ يدلّ اللفظُ على معناه الذي يوجبُه ظاهرُه ثم يعْقِلُ السامعُ من ذلك المعنى على سبيلِ الاستدلال معنىً ثانيا هو غرضُك كمعرفتكَ من كثيرِ رمادِ القدرِ أنَّه مضيافٌ، ومن طويلِ النّجادِ أنّه طويلُ القامة، ومن نؤومِ الضُّحى في المرأةِ أنّها مترفةٌ مخدومةٌ لها مَنْ يكفيها أمرَها»[٢٤]. وهذا يعني أنّ لكلّ جملة من تلك الجمل معنيين، المعنى الأوّل وهو المعنى الحرفي الذي تصل إليه من ظاهر اللفظ دون واسطة، والمعني الثّاني وهو الذي تستدلّ عليه بعقلك. من هنا نرى أنَّ المعاني الثّواني عند الجرجاني هي أساس الجمال في الكلام، وإليها ترجع المزيّة.

وينتمي كلام الجرجاني لعلم التداولية أو البراجماتية (pragmatic)، وهو علم يهتم بدراسة معنى المعنى، وقد جعل بعض اللغويين هذا العلم

(٢٣) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. دلائل الإعجاز (دار الفكر، دمشق، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م) تحقيق : د. محمد رضوان الداية و د. فايز الداية، (٢٦٩).

(٢٤) السابق (٢٦٨).

بوصفه مستوى مستقلا من مستويات اللغة (الصوت، والصرف، والنحو، والدلالة، والتداولية)، وجعله بعضهم أحد فروع علم الدلالة أي إنّ مجال علم الدلالة أعمّ من مجال معنى المعنى وهو ما يعرف في الدراسات الحديثة بـ (semantics) الذي يدرس اللفظة المفردة من خلال المعنى الذي تدلّ عليه، أو هو الفرع الذي يدرس علاقة الرموز بالأشياء التي تنطَبِق عليها[٢٥] فـ « الكلامُ على ضربين: ضربٌ أنتَ تصلُ منه إلى الغرضِ بدلالةِ اللفظِ وحده وذلكَ إذا قصدتَ أن تخبِرَ عن زيدٍ مثلاً بالخروجِ على الحقيقةِ فقلتَ خرجَ زيدٌ وبالانطلاقِ عن عمرٍو فقلتَ: عمرٌو منطلِقٌ: وعلى هذا القياس. وضربٌ آخرَ أنتَ لا تصلُ منه إلى الغرضِ بدلالة اللفظِ وحده ولكن يدلُّك اللفظُ على معناه الذي يقتضيه موضوعُه في اللُّغةِ ثمَّ تجِدُ لذلك المعنى دلالةً ثانيةً تصِلُ بها إلى الغرضِ، ومدار هذا الأمرِ على الكنايةِ والاستعارةِ والتّمثيل»[٢٦]. فهو يرى أن للفظ مزية إذا كان غرضك دلالته وحده وهو معناه الحرفي وكان مقصدك هو مجرد الإخبار ويضرب لذلك مثلا في خروج زيد وانطلاق عمرو وهذا المعنى هو دلالة اللفظ على معناه في التّركيب اللغوي. ويرى أن ثمة دلالة ثانية للفظ غير الدلالة الأولى في بعض السياقات.

والملاحظ أنّ الجرجاني ربط بين التّنظير والتطبيق، فحلّل النّصوص على اختلاف أشكالها وصورها، وأظهر ما فيها من جمال أو تكلّف من خلال النّماذج المختلفة. وقد استطاع الجرجاني أن يبدع في تحليله للغة

(٢٥) عمر، أحمد مختار. علم الدلالة (دار العروبة، الكويت، ١٩٨٢ م)، (١١).
(٢٦) الجرجاني. دلائل الإعجاز (٢٦٨).

من خلال نظريته (النظم)، ومن خلال إدراكه لقيمة اللغة وعبقريتها. يقول: «وإذ قد عرفتَ هذه الجملة فقد حصلَ لنا منها أن المفسَّر يكون له دلالتان: دلالةُ اللفظ على المعنى ودلالةُ المعنى الذي دلَّ اللفظُ عليه على معنى لفظٍ آخر. ولا يكون للتفسير إلاّ دلالةٌ واحدةٌ وهي دلالة اللفظ. وهذا الفرقُ هو سببُ أنْ كان للمفسَّر الفضلُ والمزية على التفسير. ومحالٌ أن يكونَ هذا قضيةَ المفسَّر في ألفاظِ اللغة. ذاكَ لأنَّ معنى المفسَّر يكونُ مجهولاً عند السامع ومحالٌ أن يكون للمجهول دلالة. ثم إنَّ معنى المفسَّر يكون هو معنى التّفسير بعينه ومحالٌ إذا كان المعنى واحدًا أن يكون للمفسَّر فضلٌ على التفسير لأنَّ الفضل كان في مسألتنا بأنْ دلَّ لفظ المفسر على معنى ثم دلَّ معناه على معنى آخرَ. وذلك لا يكونُ مع كونِ المعنى واحدًا ولا يتصوَّر»[٢٧]، أي: إنّ اللفظ يعطي معنى ثم يفضي بنا ذلك المعنى إلى معنى آخر. فالجرجاني لا ينظر إلى اللفظ إلاّ من خلال النَّظم، وأيّ وصف للفظ لا يكون إلاّ من خلال المعنى، ومزية النَّظم لا تكون إلا من خلال التحام كلّ من اللفظ والمعنى داخل التّركيب" وهل تجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلّا وهو يعتبرُ مكانها من النّظم، وحُسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤنستها لأخواتها ؟ وهل قالوا: لفظة متمكّنة ومقبولة، وفي خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة إلاّ وغرضهم أنْ يعبّروا بالتّمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبوّ عن سوء التّلاؤم، وأنَّ الأولى لم تلِق بالثّانية في

(٢٧) السابق (٤١٣).

معناها، وأن السّابقة لم تصْلح أنْ تكون لِفقًا للتالية في مؤدَّاها؟»[٢٨]، وفي هذا السياق يكون الجرجاني أول من فسّر نظرية النّظم، وأول من قصد إلى المعاني الثّواني قصدا من خلال فكرة النّظم.

وإذا كنَّا فصّلنا القول حول المعاني الثّواني (معنى المعنى) عند الجرجاني فينبغي أن نشير إلى ما ذكره الخطابي (٣٨٨هـ) في تفسيره لهذه القضية، ودوره في الإعجاز القرآني، وهو سابق للجرجاني إذ يقول عند حديثه عن إعجاز القرآن، وعجز البشر على أن يأتوا بمثله: «إنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأمور ثلاثة : منها إنَّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، وما تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النّظوم التي يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله وإنّما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم»[٢٩]. فاللفظ الحامل للمعنى هو الدال، والمعنى القائم هو المدلول، والرباط هو ائتلاف الدوال (الألفاظ) في سياق تركيبي معين. وقد أبدع الخطابي في عبارته الموجزة إذ يرى عبد العزيز حمودة أن هذا الاختيار بين المفردات اللغوية، أو بين الألفاظ

(٢٨) السابق (٩٣).

(٢٩) بيان إعجاز القرآن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر. تحقيق : محمد خلف الله أحمد ومحمد مندور وزغلول سلام (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م)، (٢٦-٢٧).

الحوامل للمعنى، يقوم بالطبع على انتقاء اللفظة المناسبة من بين ألفاظ أخرى؛ يقول: «إننا لا نملك إلا أن نقف أمام هذا النص في عجب وإعجاب شديدين فهذا نص عربي قديم يتحدّث عن اللغة كنظام من العلامات وإن كان لا يستخدم لفظ (علامة) صراحة، وشبكة علاقات هي التي تحدد دلالة النص، فاللفظ هنا (لفظ حامل للمعنى) أي: أنّه علامة تدلّ على معنى، والمعنى (محمول على ذلك اللفظ)؛ أي: إنّه المدلول الذي يدلّ عليه اللفظ الدال» .. إلى أن يقول: «لقد استغرق العقل الغربي الذي أبهرتنا إنجازاته الحداثية ما يقرب من اثنى عشر قرنا لينتج هذه الصيغة التي أدرنا لها ظهورنا بدلاً من تطويرها»[٣٠].

كما أنّ النظرية التداولية عنيت بجوانب الخطاب المختلفة ومنها أفعال الكلام التي تتحقق في استعمال اللغة وفق قواعد معينة، منها ما جاء متوافقًا مع المعاني الثواني؛ إذ يرى "جرايس" أن الدلالة اللغوية للعبارة تنقسم إلى معنيين :

- معاني صريحة: هي المعاني المستخلصة من الصيغة الحرفية للجملة ذاتها (المعاني المباشرة).
- معاني ضمنية : وهي المعاني التي تفهم انطلاقا من السياق الذي ترد فيه (المعنى المستلزم)[٣١]، أي: إنها تشير إلى كيفية انتقال الدلالة من مجرد كونها دلالة حرفية (مباشرة) إلى دلالة مستلزمة

(٣٠) المرايا المقعرة (٢٣٣-١٣٤).

(٣١) المتوكل، أحمد. اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري (منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٧)، (٢٤- ٢٦).

(غير مباشرة) تفهم عن طريق استقصاء المقام الذي وردت فيه. وانتقال الدلالة بهذه الصورة يتفق مع ما جاء في قضية المعاني الثواني لكنه حمل مصطلحات جديدة.

المعاني الثواني لأسلوب الاستفهام بالهمزة في القرآن الكريم

تكاملت الدراسات البلاغية والنحوية في دراسة أسلوب الاستفهام فعقدوا له أبوابا مستقلة كان البلاغيون أكثر عمقا في دراسة تلك الظواهر اللغوية من النحاة. وقد أطلق عليها كثير من البلاغيين وخاصة المتأخرين منهم (المعاني المجازية للاستفهام) في حين رفض الدكتور بسيوني أن تكون تلك المعاني مجازية، وأورد لذلك أسبابا منها أنّ المتأخرين أنفسهم الذين قالوا بمجازية هذه المعاني وجَدُّوا في التماس العلاقات لبيان وجه المجاز، نراهم مترددين وكأنهم غير مقتنعين بما يقولون، فهم يذكرون وجوهًا من الاحتمالات قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل إغرابا منه(٣٢).

وإذا كان الاستفهام في كلام العرب يستعمل في الغالب للاستفهام عما يُجهل، فهو في كلام الله تعالى محال؛ لأنَّ الله لا يَستفهم الخلق عن شيء أبدا، ولذا فالاستفهام القرآني قد يخرج عن معناه الأصلي لمعانٍ أُخَر تُفهم من سياق الكلام.

والملاحظ أنَّ المعنى الحقيقي للاستفهام هو طلب المعرفة، وقد يتضمّن الاستفهام معنى آخر وهو الإنكار أو التقرير، وما يضاف إليهما

(٣٢) فيود. علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني (٣١٨).

من دلالات أخرى مثل: التعجب أو العتاب أو التوبيخ أو غيرها وهذا هو معنى المعنى.

والأساليب الاستفهاميّة جاءت في القرآن الكريم في ألف ومئتين وستين موضعا، منها خمسمائة وستين موضعا لهمزة الاستفهام(٣٣).

وممّا لا شكّ فيه أنَّ كثرة الأساليب الاستفهامية في القرآن الكريم وتنوع صيغها وتعدّد دلالاتها تستثير العقول إلى النّظر والتأمل، وتحفز الفكر إلى مزيد من التّدبر والنقد، كما أنَّ تنوع تلك الأساليب وما فيها من أدلة على وحدانية الخالق لتكون حجَّة على الناس من أكثر الأساليب ورودًا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل].

وإنّ خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي لم يكن في رأي المتأخرين فقط؛ بل سبقهم إلى ذلك بعض علماء اللغة؛ يقول أحدهم: «ثم إنّ هذه الكلمات الاستفهامية كثيرًا ما تستعمل في غير الاستفهام ممّا يناسب المقام بمعونة القرائن. وتحقيق كيفية هذا المجاز، وبيان أنَّه من أي نوع من أنواعه ممَّا لم يحم أحد حوله»(٣٤)، أي: لم يقل به أحد.

وحريّ بالذكر أن المعاني المستفادة من أسلوب الاستفهام إنَّما تتولَّد من السياق نفسه، وليست لازمة لأداة من أدوات الاستفهام؛ بدليل تنوع

(٣٣) اللبدي، عبد الرؤوف سعيد عبد الغني. همزة الاستفهام في القرآن الكريم (المكتبة الوطنية، عمان، ١٩٩٢م)، (٨).

(٣٤) التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر. المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم. تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي (دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م) (٤١٩).

تلك السياقات، وما يتبعه من تنوع معانيها، وبدليل أنَّنا قد نستخرج من السّياق الواحد للاستفهام أكثر من دلالة، وهو ما نطلق عليه المعاني الثواني التي يخرج لها أسلوب الاستفهام وهي كثيرة، تتعدى ما أورده علماء البلاغة في كتبهم، ويستطيع من امتلك حسًّا لغويًّا أن يكتشف معاني لأساليب الاستفهام لم يسبق إليها، معتمدًا في ذلك على السياق والقرائن المحيطة به ؛ حين يكون حمل الاستفهام على المعنى الأصلي مستحيلاً.

١- الاستفهام الإنكاري

الهمزة هي أكثر أدوات الاستفهام دلالة على معنى الإنكار، والاستفهام الإنكاري هو خروج الاستفهام من معناه الحقيقي للدلالة على أنّ المستفهم عنه أمر منكر سواء أكان عرفًا أو شرعًا. وإنكار الشيء يدفع إلى كراهيته والنفور منه.

يقول عبد القاهر الجرجاني: «واعلمْ أنَّا وإن كنَّا نفسِّر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإنَّ الذي هو مَحضُ المعنى أنَّه لتنبيه السَّامع حتّى يرجعَ إلى نفسه، فيخجلَ ويرتدعَ، ويعيا بالجواب»[٣٥]؛ إذ يؤكِّد لنا عبد القاهر الجرجاني أنّ الإنكار يأتي لتنبيه السَّامع حتَّى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع عما كان بسبيله.

وقد توسَّع العلماء في دراستهم لهذا الأسلوب، وبيَّنوا أقسامه وأنواعه، وذكروا أنَّه يرد إمَّا للتوبيخ بمعنى ما كان ينبغي أن يكون، أو

(٣٥) الجرجاني. دلائل الإعجاز (١٥٢).

بمعنى لا ينبغي أن يكون، وإمَّا للتكذيب بمعنى لمْ يَكُنْ[٣٦]. وبعضهم قسَّمه إلى الإنكار الإبطالي، والإنكار الحقيقي؛ فالإبطالي: أن يكون ما بعد أداة الاستفهام غير واقع ومدعيه كاذب. والحقيقي: يكون ما بعدها واقع وأن فاعله ملوم[٣٧]، وشرطه أن يلي المنكر الهمزة.

٢- الاستفهام الإنكاري التوبيخي

ويُقصَد به توجيه اللوم والعتاب الشديد لأمر حدث بالفعل، أو يمكن أن يحدث، ومن ذلك :

- قال الله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف].

وظَّف القرآن الكريم أسلوب الاستفهام في الحوار العقلي في هذه الآية، وفي غيرها من الآيات؛ الذي هو وسيلة من وسائل الوصول إلى الحقِّ، كما أنَّه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله. وهذا الاستفهام حكاه الله على لسان البشر. وهو واقع من القرين لقرينه.

وقد بين الله في هذه الآية : أنّ ذلك الرجل المؤمن قال لصاحبه المتكبر الكافر منكرا عليه كفره ومتعجبًا من صنيعه : أكفرت بالذي خلقك من تراب ثمَّ من نطفة ثم سوَّاك رجلا ؟ لأنَّه كان يعتقد أنّ خلق الله تعالى له يقتضي إيمانه بخالقه الذي أوجده من العدم، وجعله بشرًا سويًا؛

(٣٦) القزويني، الخطيب. الإيضاح في عُلوم البَلاغة (دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٥، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م)، (١/٢٣٦).

(٣٧) الزركشي. البرهان في علوم القرآن (٢/٣٣١).

فطمس حجته، وعطل تفكيره بهذه الحجة العقلية التي تذكره بأصل خلقه، وأنّ الذي أوجده من العدم قادر على بعثه بعد موته؛ وهذا أفضل أسلوب لمعالجة ما وقع في نفسه من تكبر، والاستفهام هنا على سبيل الإنكار التوبيخي التقريعي، لأنّ الفعل المنكر يوبَّخ صاحبه ويقرّع، بل إنّنا نلمح في الاستفهام أيضا معنى التعظيم لما وقع به صاحبه من كفر وجحود. جاء في كتب التفسير: «والاستفهام في قوله أكفرت بالذي خلقك مستعمل في التعجب والإنكار، وليس على حقيقته لأنّ الصاحب كان يعلم أنَّ صاحبه مشرك بدليل قوله له: ولا أشرك بربي أحدا»[٣٨]. فالدلالة هنا انتقلت من مجرد كونها دلالة حرفية وهي الاستفهام الذي يتطلب الجواب إلى دلالة مستلزمة غير مباشرة، هي المعاني التي أطلق عليها الجرجاني المعاني الثواني والتي تفهم عن طريق استقصاء المقام الذي وردت فيه، وهي :

- الاستنكار فالرجل الفقير يستنكر على صاحبه كفره.
- التَّوبيخ والتَّقريع لمقابلته الإحسان بالكفر.
- التّعجب من انغماس هذا الرجل بالكفر، ونسيانه المتفضل عليه بالنِّعم.
- التَّعظيم لصنيعه، ومقابلة الفضل بالجحود.
- ولعلنا نضيف معنى آخر وهو التذكير بنعم الله التي لا ينبغي أن يقابلها بالجحود.

(٣٨) ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير (الدار التونسية للنشر، تونس، د.ت)، (٣٢٢/١٥).

إنّ دخول همزة الاستفهام على الفعل (كفرتَ)" دلّت على إنكار وقوع الكفر، وقد تدخل همزة الاستفهام على الاسم فتدلّ على إنكار أنَّه الفاعل كما قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩]، كما تدخل على المفعول فتدلّ على إنكار المفعولية كما في ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠] . ولو نظرنا إلى هذه الآيات وما فيها من تقديم وتأخير من وجهة نظر تداولية لقلنا: إنَّ التقديم والتأخير حصل لأسباب تداوليّة ففي الآية الأولى ركز المرسِل –وهو الرجل المؤمن –على الفعل لأنّه كان ينكرحدث الكفر ويعظمه وهو المرسَل إليه، وفي الآية الثانية المرسِل هو الله تعالى والمرسَل إليه هم الكفار الذين ينكرون أنَّ الفاعل هو الله تعالى فقدمه، وفي الآية الأخيرة المرسَل إليه ينكر المفعول الذي تقدَّم على فعله وفاعله.

- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء].

ينهى الله تعالى في هذه الآية عباده المؤمنين عن موالاة الكفَّار؛ لأنّهم إذا اتّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين فقد جعلوا لله عليهم حجَّة في عقابهم، فبعد نهيهم عن هذا الصنيع جاء الاستفهام الإنكاري من الله تعالى وما فيه من تحذير وإنذار ووعيد من وقوع هذه الموالاة منهم.

وقد جاء التعبير القرآني بالفعل المضارع بعد الهمزة لأنَّ السؤال موجّه إلى تلك الإرادة وهي غير واقعة بل يحتمل وقوعها في المستقبل والمراد: أنه لا ينبغي أن تكون هذه الإرادة [٣٩]، وعلى هذا فالاستفهام للإنكار والتحذير من وقوع هذه الموالاة. وقيل: «الاستفهام للتّقريع والتّوبيخ؛

(٣٩) بسيوني: علم المعاني، (٣٢٤).

أي: أتريدون أن تجعلوا الله عليكم حجّة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاة الكافرين»[٤٠]. وقيل: «الاستفهام مستعمل في معنى التَّحذير والإنذار مجازًا مرسلاً»[٤١].

إنّ معاني أسلوب الاستفهام الإنكاري في هذه الآية هي: الإنذار والتحذير من أن يقع منهم ذلك، أو التوبيخ والتقريع إن وقع منهم ذلك. والاستفهام واقع من الله تعالى لعباده المؤمنين. فالمرسل هنا هو الله الذي لا ينتظر ردًا من المتلقين، بل يريد إحداث التأثير فيهم، إذ يوضح لهم ما ينتظرهم من عقاب إن هم فعلوا ذلك، فوظَّف الاستفهام لهذا الغرض وما فيه من الإنكار المتضمّن معنى الوعيد والإنذار.

- ومنه قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُّمَر].

إنَّ الخطاب موجّه لعامة الناس، والمعنى: أولم يعلم هؤلاء الذين كشفنا عنهم الضّر أنّ الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيوسعه لمن يشاء، ويقتره على من يشاء، أي يعطيه لمن يشاء، ويمنعه عمّن يشاء، فهو المتصرف فيه وحده دون سواه. والاستفهام هنا يضفي على دلالة إنكاره عليهم عدم العلم دلالة أخرى وهي دلالة التوبيخ. قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ): «فالاستفهام إنكار عليهم في انتفاء علمهم بذلك

(٤٠) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (المكتبة التجارية – مصطفى أحمد البار، مكة المكرّمة، ط٣، ١٤١٤هـ) تحقيق: سعيد محمد اللحام (٧٩٩/١).

(٤١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٤٣/٥).

لأنَّهم تسببوا في انتفاء العلم، فالإنكار عليهم يتضمن توبيخا. واقتصر في الإنكار على إنكار انتفاء العلم بأن بسط الرزق وقَدْرَه من فعل الله تعالى لأنّه أدنى لمشاهدتهم أحوال قومهم فكم من كادٍّ غير مرزوق وكم من آخر يجيئه الرزق من حيث لا يحتسب»[٤٢].

والاستفهام الإنكاري ينقسم إلى قسمين، الأول منهما الاستفهام التّوبيخي؛ وهو ما سبق، والثّاني التّكذيبي، وقد ذكر القزويني (٧٣٩هـ) قسمي الاستفهام: «ومنها: الإنكار، إمَّا للتوبيخ بمعنى ما كان ينبغي أن يكون، نحو: أعصيت ربك؟ أو بمعنى لا ينبغي أن يكون، كقولك للرجل يُضَيِّع الحقّ: أتنسى قديمَ إحسانِ فلانٍ؟ وكقولك للرجل يركب الخَطر: أتخرج في هذا الوقت؟ أتذهب في غير الطريق؟والغرضُ بذلك تنبيهُ السامع حتَّى يَرْجِعَ إلى نفسه، فيخْجَلَ أو يَرْتَدِعَ عن فِعل ما هَمَّ به. وإما للتكذيب بمعنى لَمْ يَكُنْ، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات]، أو بمعنى: لا يكون، نحو: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود][٤٣].

٣- الاستفهام الإنكاري التكذيبي

الكذب هو عدم مطابقة الخبر للواقع؛ لاعتقاد المخبر لهما على خلاف ذلك[٤٤]، والتّكذيب النِّسبة إلى الكذب، وهو: «التَّصميم على أنّ

(٤٢) السابق (٢٤/٣٨-٣٩).

(٤٣) الإيضاح في علوم البلاغة (١/٢٣٦).

(٤٤) العسكري، أبو هلال. الفروق اللغوية (٣٠٥).

الخبر كذب بالقطع عليه»[٤٥]، ويسمَّى أيضًا بالإنكار الإبطالي، وبإنكار الوقوع، ذلك أنَّ الأفعال المنكرة غير واقعة، والمراد نفي وقوعها حتَّى لا يظنّ ظانّ أنَّها يمكن أن تقع[٤٦]، نحو:

- قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء].

والمعنى: «لسنا بمثابة مَنْ يقع منه هذا الإلزام، وإن عبَّرنا بفعل ذلك، - جلَّ الله تعالى عن ذلك - بل المعنى إنكار أصل الإلزام»[٤٧]. فالله سبحانه وتعالى ينكر على المشركين زعمهم بأنّ الله تعالى اتَّخذ الملائكة بنات، وخصَّهم بالذّكور ؛ فينسبون لله ما يكرهونه، وهم الإناث. و«الفاء للتّفريع، وحقَّها أن تقع في أوّل جملتها، ولكن أخّرها لأنَّ للاستفهام الصَّدر في أسلوب الكلام العربي، وهذا هو الوجه الحسن في موقع حروف العطف مع همزة الاستفهام»[٤٨]، فالاستفهام في الآية يفيد تكذيبهم وإبطال ما قالوه، والمعنى: لم يكن من الله تعالى اصطفاء ولا اتّخاذ. وهذا الإنكار التكذيبي في الماضي. وذكر ابن عاشور أنّ الاستفهام هنا استفهام إنكار وتهكم، يقول: «وبعض الأئمّة يجعل الاستفهام في مثل هذا استفهاما على المعطوف والعاطف، والاستفهام إنكار وتهكم»[٤٩].

(٤٥) السابق (١٤٨).

(٤٦) قطبي، الطاهر: بحوث في اللغة: الاستفهام البلاغي(المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٦م)، (٣٤).

(٤٧) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (٢/٣٣٠).

(٤٨) ابن عاشور. التحرير والتنوير (١٥/١٠٧).

(٤٩) السابق (١٥/١٠٧).

ويمكن أن يكون الإنكار التكذيبي في الحاضر، نحو: (أَنُلْزِمُكُمُوهَا) في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود].

تشير هذه الآية الكريمة إلى أنَّه لا إكراه في الدين، وفيها خطاب من نبي الله نوح لقومه يقول لهم: أخبروني إن كنت على بينة وحجّة قويّة من ربِّي أأجبركم على قبولها ؟، فالإيمان الصادق لا يكون عن إكراه وإجبار، وإنّما عن اقتناع واختيار. والاستفهام هنا على لسان البشر.

وقد دخلت همزة الاستفهام على كلمة من الكلمات الطّوال التي سُبقت بسوابق، ولُحِقت بلواحق ؛ قال عنها الرافعي: «وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروفٍ ومقاطع ممَّا يكون مستثقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنَّها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجًا سريًا، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة، وأعذبها منطقًا، وأخفها تركيبًا، إذ تراه قد هيّأ لها أسبابًا عجيبة من تكرار الحروف، وتنوع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وُجِد ذلك فيها»(٥٠).

«فأنت تحسّ أن كلمة (أنلزمكموها) تصور جو الإكراه، بإدماج كلّ هذه الضمائر في النطق، وشدّ بعضها إلى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم نافرون، وهكذا يبدو لون من التناسق في التعبير أعلى من البلاغة الظاهرية، وأرفع من الفصاحة اللفظية»(٥١).

(٥٠) مصطفى صادق، إعجاز القُرآن والبلاغة النبويَّة (دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، د. ت)، (٢٢٩).

(٥١) في ظلال القرآن، طنطاوي، محمد سيد. التفسير الوسيط (ط٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) (٢٢٤).

والاستفهام هنا بمعنى الإنكار؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها(٥٢).

وقد يكون الاستفهام لشيء لم يحدث في الماضي، ولن يحدث في المستقبل، ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات: ١٥٣].

ففي هذه الآية إنكار على العرب الذين كانوا ينسبون البنات لله؛ لأنَّهم كانوا بطبعهم يفضلون البنين على البنات، فنسبوا المفضول باعتقادهم لله. «فإن إنكار اصطفاء البنات يقتضي عدم الدليل في حكمهم ذلك، فأبدل ما لكم كيف تحكمون من إنكار ادعائهم اصطفاء الله البنات لنفسه»(٥٣).

وقد دخلت الهمزة في الآيات السابقة على الفعل، وهو الأصل عند سيبويه. كما خرج أسلوب الاستفهام من معناه الأصلي إلى الإنكار، وما تضمَّنه الإنكار من توبيخ وتعجب وتعظيم وتحذير ونحو ذلك.

وقد تدخل الهمزة على حرف الجر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة].

«والاستفهام إنكاري توبيخي. وتقديم المعمول وهو ﴿أبالله﴾ على فعله العامل فيه لقصد قصر التعيين لأنّهم لما أتوا في اعتذارهم بصيغة قصر تعيين جيء في الردّ عليهم بصيغة قصر تعيين لإبطال مغالطتهم في الجواب»(٥٤).

(٥٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) (١٩/٩).
(٥٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٨٢/٢٣).
(٥٤) السابق (٢٥٢/١١).

وقد تجتمع دلالة التوبيخ مع دلالة التكذيب، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

يقول أبو العباس: «وهذا تقسيم على الكفار؛ حتى يتبين كذبهم على الله، وتوبيخ لهم»(٥٥). وقد وقعت (أل) التعريف بعد همزة الاستفهام فأدغمت فيها، وأصبحتا همزة ممدودة.

ولا شك أن العدول عن أصل ترتيب هذا السياق له أثره المعنوي لأنَّ المطلوب هو إنكار المفعول به؛ لأنّه الأولى باستحقاق الإنكار فهي مناط الحديث، وفيه إبطال تحريم ما حرم المشركون على أنفسهم أكله من الأنعام، بدليل قوله في بداية الآية: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ثمّ بدأ بتفصيل ما حرَّمه المشركون على أنفسهم من الثمانية الأزواج.

٤- استفهام التقرير

وَهُوَ «حَمْلُك الْمُخَاطَبِ عَلَى الإِقْرَارِ وَالاعْتِرَافِ بِأَمْرٍ قَدِ اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ»(٥٦).

و«المراد به: الحكم بثبوته فهو خبر بأنّ المذكور عقيب الأداة واقع، أو طلب إقرار المخاطب به من كون السائل يعلم فهو استفهام يقرر المخاطب أي يطلب منه أن يكون مقرًا به»(٥٧).

(٥٥) الإدريسي. البحر المديد (دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢ م)، (٤٤١/٢).

(٥٦) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (٣٣٢/٢).

وقد أوجب الجرجاني في همزة الاستفهام التقريري أن يليها الشيء المستفهم عنه[٥٨]، ويشترط فيه أن يذكر بعد الهمزة ما حمل الخاطب على الإقرار به، كقول الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنبياء]، ومن هنا: نرى أن الغرض البياني من الاستفهام التقريري إلزام المخاطب بالحجّة، وانتزاع الاعتراف منه بما يريد المتكلم وفي ذلك غرض نفسي ؛ لأنّ البيان والبلاغة لهما صلة وثيقة بقضايا النفس وعلم النَّفس.

ومنه: قول الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات].

فالله سبحانه وتعالى يقرّر قضية خلق الإنسان من طين من خلال توجيه خطابه لنبيه محمد ﷺ بأن يسأل هؤلاء المنكرين أإيجادهم بعد موتهم أشدّ خلقًا أم هذه المخلوقات التي خلقها الله تعالى؟ فإقرارهم بأنَّ هذه المخلوقات أشدّ خلقًا يستوجب إقرارهم بالبعث.

ويرى جمعٌ من المفسرين أنَّ الاستفهام هنا للتقرير، فأبو حيان (٤١٤هـ) يرى أنّ «الاستفتاء نوع من السؤال، والهمزة وإن خرجت إلى معنى التّقرير فهو في الأصل لمعنى الاستفهام أي فاستخبرهم، والضّمير لمشركي مكة»[٥٩].

(٥٧) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن (الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، (٢٦٩/٣).

(٥٨) دلائل الإعجاز (١١١)، الزركشي، والبرهان في علوم القرآن (٣٣٣/٢).

(٥٩) أبو حيان التوحيدي، محمد بن يوسف. البحر المحيط في التفسير. (المكتبة التجارية – مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة) عناية : الشيخ عرفات العشا حسونة. مراجعة: صدقي محمد جميل (٩٣/٩).

ويقول ابن عاشور: «والمعنى: فاسألهم عن رأيهم فلما كان المسؤول عنه أمرًا محتاجًا إلى إعمال نظر: أطلق على الاستفهام عنه فعل الاستفتاء، وهمزة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ للاستفهام المستعمل للتقرير بضعف خلق البشرية بالنسبة للمخلوقات السماوية ؛ لأنَّ الاستفهام يؤول إلى الإقرار حيث إنَّه يُلجيء المستفهم إلى الإقرار بالمقصود من طرفي الاستفهام فالاستفتاء في معنى الاستفهام، فهو يستعمل في كلّ ما يستعمل فيه الاستفهام»(٦٠).

وذهب أبو السعود (٩٨٢هـ) إلى أنّ الاستفهام للتبكيت: «أمر الله - عزَّ وجلّ - في صدر السورة الكريمة بتبكيت قريش، وإبطال مذهبهم في إنكار البعث بطريق الاستفتاء»(٦١).

وقد أجاز الألوسي (١٢٧٠هـ): أن يحمل هذا الاستفهام معنى التقرير والإنكار(٦٢).

والأولى أن تكون الهمزة هنا للتقرير وليست للإنكار لأنّ الذي ولي الهمزة هو المقرّر به، فالله تعالى أراد حملهم على أن يقروا له بقدرته على بعثهم أمَّا إقرارهم بأن خلق هذه المخلوقات أعظم من بعثهم فأمر مشاهد لهم. كما أن الاستفهام من باب التذكير بحقيقة غير مختلف عليها.

- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

(٦٠) التحرير والتنوير (٢٣/٩٤).

(٦١) محمد بن أحمد، إرشاد العقل السليم (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت)، (٧/٢٠٦).

ذكر النسفي (٧١٠هـ) أنَّ «هذا السؤال تقرير وجوابه مسكوت عنه لوضوحه»[٦٣]، وكذلك ذهب ابن عاشور إلى أن الاستفهام هنا ورد بصفة الاستفهام التّقريري[٦٤]، وذهب أبو السعود (٩٢٨هـ) إلى أنَّ الهمزة للإنكار، حيث قال: «الهمزة للإنكار والمعنى من أسَّس بنيان دينه»[٦٥].

والصواب أنَّ الهمزة للتقرير لما فيه من التنبيه، وقوة التأثير، ولأنَّ الذي ولي الهمزة هو المقرر به الثابت، وهو إثبات الخيرية لبناء التقوى، والرضوان، وهذا الاستفهام لتقرير عدم استواء الطرفين، أي: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار، أي طرف حفرة متداعية للسقوط[٦٦].

وهذا أسلوب قرآني في توجيه أولي العقول السليمة إلى المفاضلة بين الضدين، وعدم المساواة بينهما فالموازنة هنا بين ضدين متعاكسين لا يلتقيان. وتقدمت الهمزة على الفاء لأحقيتها في التصدير.

- وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨].

وقد اتّفق معظم الأئمة والمفسّرين على أنَّ معنى (أرأيتم) أخبروني وهو معنى يشير إلى التّقرير. وقد رأى أبو حيان (٤١٤هـ) أنَّ هذا «ليس

(٦٣) النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، تفسير النسفي المسمَّى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل (دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٩م)، (٦٥٣/١).
(٦٤) التحرير والتنوير (٣٤/١٢).
(٦٥) إرشاد العقل السليم (١٠٣/٤).
(٦٦) الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ١:٥٩٩

استفهاما حقيقيًا عن الجملة وأنَّ العرب ضمَّنت هذه الجملة معنى أخبرني»[٦٧].

قال ابن عاشور: «أرأيتم: استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد، وهو استفهام تقريري إذا كان فعل الرؤية غيرَ عامل في مفرد فهو تقرير عن مضمون الجملة السَّادة مسدّ مفعولي (رأيتُم)، ولذلك كان معناه آيلاً إلى معنى أخبروني، ولكنّه لا يستعمل إلا طلب مَن حاله حالُ من يجحد الخبر»[٦٨]، أي: على يقين، وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله بهم.

٥- التقرير المنفي :

عندما تدخل همزة الاستفهام على النفي تنفي ذلك النفي فيعود إثباتا ؛ يقول السيوطي: «وحقيقة استفهام التقرير: أنه استفهام إنكار، والإنكار نفي، وقد دخل على النفي، ونفيُ النفي إثبات»[٦٩].

- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧].

وقد ذكر ابن عاشور أنَّ الاستفهام تقريري أي إنّكم تعلمون أنّ الله قدير، وتعلمون أنّه مالك السماوات والأرض بما يجري فيها من الأحوال، والآية الثانية (ألم تعلم) بمنزلة التكرير للأولى، لأنّ مقام التقرير، ومقام التوبيخ كلاهما مقام التكرير لما به التقرير والإنكار تعديدًا

(٦٧) البحر المحيط في التفسير (٦/١٤٣).
(٦٨) التحرير والتنوير (١٣/٥١).
(٦٩) الإتقان في علوم القرآن (٢/١٤٠).

على المخاطب[٧٠]، وذلك لقصد الاهتمام بالخطاب، وما يترتب عليه من تكرار هذا التقرير مبالغة في فكره ووفائه، وفي التقرير الثاني زيادة على الأوّل، فترك العطف بين الآية الأولى والثانيّة، وذلك للعلاقة المعنوية التي تربط بينهما فجاءت الثانيّة بيانًا وتأكيدًا للأولى.

ويُطلق على هذه الظاهرة اللغويّة في علم اللغة الوظيفي ظاهرة التحجر، وذلك عندما ينتقل المعنى عبر مرحلتين، المرحلة الأولى تمثل الدلالة الحرفية (السؤال والنفي) والدلالة المستلزمة مقاميا (الإثبات أو التقرير)، والمرحلة الثانية وفيها تنمحي الدلالة الحرفية، وتبقى الدلالة المستلزمة، إذ تصبح هذه الدلالة دلالة حرفية، ومن ثمة لا ينطبق عليها مبدأ خرق قواعد الحوار لرصد دلالتها المستلزمة[٧١].

فالمعنى الصريح يدلّ على الاستفهام المنفي، والضمني يدلّ على الإثبات أو التقرير حيث يصبح المعنى: إنك تعلم، وهذا النوع من الاستفهام ينزع في جميع سياقاته إلى الدلالة على الإقرار بما كان فعلا. وتوجه الرسالة من الله إلى المخاطب لإقامة الحجة عليه، فالمعنى انتقل عبر مرحلتين كما ذكرنا.

٦- تكرار الاستفهام

وقد يتكرر الاستفهام في الآية الواحدة، ويكون الغرض المبالغة في الإنكار لأسباب منها :

١- تأكيد الاستفهام الأوّل.

(٧٠) السابق (١/٦٦٥).

(٧١) المتوكل، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري (٢٦).

٢- طول الكلام.

٣- الاستبعاد.

ومن ذلك :

- قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

أي إنّهم كانوا يعتقدون استحالة البعث بعد الموت، قال السمين الحلبي (٧٥٦هـ): «ثم الوجهُ في قراءةِ مَن استفهم في الأوَّل والثَّاني قَصْدُ المبالغة في الإنكار، فأتى به في الجملة الأوَّلى، وأعاده في الثَّانية تأكيدًا له، والوجهُ في قراءةِ منْ أتى به في مرة واحدة حصولُ المقصودِ به؛ لأنَّ كلَّ جملة مرتبطةٌ بالأخرى، فإذا أنكرَ في إحداهما حَصَل الإنكار في الأخرى، وأمَّا مَنْ خالف أصلَه في شيءٍ من ذلك فلاتِّباعِ الأثَر»(٧٢).

ويقول ابن عطية (٥٤٢هـ) في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة]: «والاستفهام إنكاري كناية عن الإحالة والاستبعاد، وتقدم نظير (أإذا متنا وكنا ترابًا ..) إلخ في (سورة الصافات)»(٧٣).

وقال ابن عاشور: «والاستفهام في (أإذا كنا ترابًا) إنكاري، لأنَّهم موقنون بأنّهم لا يكونون في خلق جديد بعد أن يكونوا ترابًا. والقول

(٧٢) أحمد بن يوسف، الدر المصون في الكتاب المكنون (دار القلم، دمشق، د.ت) تحقيق: د. أحمد محمد الخرَّاط (١٩/٧).

(٧٣) التحرير والتنوير (٣٠٧/٢٧).

المحكي عنهم فهو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرين وهما كونهم ترابًا، وتجديد خلقهم ثانية. والمقصود من ذلك العجب والإحالة»[٧٤].

- ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزُّمَر].

والمعنى: أفمن كتب الله أنه شَقِي بسبب إصراره على كفره حتى النهاية، أفتَستطيع أنت يا محمّد أن تُنْقذُه من النَّار، ومن هذا المصير الأليم، وممَّا هو فيه من الضَّلال والهلاك؟ والجواب: لا، إنّك لا تستطيع ذلك ؛ لأنّ من استحبّ الكفر على الإيمان استحقّ الحكم عليه بأنَّه من أهل النار.

يقول القرطبي (٦٧١هـ): «وكرر الاستفهام في قوله: (أفأنت) تأكيدا لطول الكلام، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون] على ما تقدَّم. والمعنى: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه. والكلام شرط وجوابه، وجيء بالاستفهام ليدل على التوقيف والتقرير. وقال الفراء: المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إن في الكلام حذفا، والتقدير: أفمن حقّ عليه كلمة العذاب ينجو منه، وما بعده مستأنف»[٧٥].

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في (أفأنْتَ تُنْقِذُ) مفيد لتقوّي الحكم وهو إنكار أن يكون النبي ﷺ بتكرير دعوته يخلّصهم من تحقق الوعيد أو يُحصل لهم الهداية إذا لم يقدرها الله لهم»[٧٦].

(٧٤) السابق (١٣/ ٩٠).
(٧٥) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٥٩).
(٧٦) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٧١).

من كلّ ما سبق نرى أنَّ همزة الاستفهام تُستعمل لإفادة معان كثيرة ؛ أبرزها معنيان: الإنكار والتقرير، وهما المعنيان اللذان توقف عندهما علماء البلاغة واللغة كثيرا. وقد يجتمع المعنيان في سياق قرآني واحد. ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

قال الجرجانيّ: «واعلمْ أنَّ الهمزةَ فيما ذكرنا تقريرٌ بفعلٍ قد كان ، وإنكارٌ له لِمَ كان وتوبيخٌ لفاعلهِ عليه»(٧٧).

خاتمة

وظّف القرآن الكريم أسلوب الاستفهام لإيصال المعنى للمخاطبين، فالاستفهام القرآني من أفضل الطرق لإثارة الانتباه، وتوجيه العقول إلى الحقائق وتفتيح الأذهان إلى حسن التدبّر. وذلك عن طريق سياقات متعددة لا يقوم الخبر مقامها.

وإذا كان الخطاب القرآني موجهًا من الله سبحانه وتعالى للمخلوقين فلا شكّ في أنّه لا يعني المعنى الحرفي للاستفهام؛ فهو يستفهم ليقررهم بحقيقة، أو لينكر عليهم أمرا، وهذا الأسلوب مما انفرد به القرآن الكريم.

ويأتي هذا البحث للوقوف على المعاني الثواني لهمزة الاستفهام في القرآن الكريم بناء على ما جاء في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني الذي سبق فيها أصحاب النظرية التداولية عند حديثهم عن انتقال الدلالة من المعنى الحرفي إلى المعنى الضمني للسياق.

(٧٧) الجرجاني، دلائل الإعجاز (٨٩).

ومن النتائج التي توصّل إليها البحث :

١- الهمزة هي أكثر أدوات الاستفهام وروداً في القرآن الكريم.
٢- التعبير بأسلوب الاستفهام له دوره الواضح في توجيه الأفكار، وتعميق معنى التوحيد في القلوب، كما أنَّه يخاطب العقل والوجدان في آنٍ واحد فينشط الخيال، وتتحرك العقول.
٣- استعمل القرآن الأسلوب الاستفهامي في الحوار، والحوار شكل من أشكال التواصل اللغوي، يصل المتكلمين بموضوع الكلام لما فيه من إثارة تسترعي الانتباه، وتريح النفوس، وإقناع العقول.
٤- دلالة الاستفهام على الإفهام لا تغيب عن السياق، وإنَّما تتوارى خلف المعاني البلاغية، وعلى هذا لا يمكن أن نطلق عليها معاني مجازية.
٥- لا يمكن حصر معاني الاستفهام في سياقاتها القرآنية؛ لأنَّها تتعدد بتعدد سياقاتها، بل إنَّنا قد نستشف من السياق الواحد أكثر من دلالة تتضافر جميعها للوصول إلى المعنى.
٦- تتولَّد المعاني المستفادة من أسلوب الاستفهام من السياق نفسه، وليست لازمة لأداة من أدوات الاستفهام
٧- اكتسبت همزة التسوية التي تقع بين «سواء، و: أم» هذه الدلالة من وجودها بين هاتين الكلمتين لا من ذات الهمزة.